

فلما رأى مسعود أن إبراهيم لم يكذب يتم الأسبوع الأول بعد وفاة أبيه حتى فكر في الحج ودعا إليه، ولم يفكر في الحج لنفسه، وإنما يفكر في الحج لأبيه، رضى نفسه واطمأن قلبه وسالت دموعه على لحيته غزيرًا. وابتسم الشيخ الشاب له كما كان يبتسم له أبوه من قبل، وقال: كفكف دمعك يا مسعود، ألا يمكن أن تنفق ساعة لا تذرف فيها دمعًا، ثم التفت إلى رجل من أصفياه كان في آخر المجلس لم يظهر نشاطًا شديدًا للحج، وإنما أجاب كما أجاب الناس، ولم يكن هذا الرجل إلا عليًا، التفت إليه إبراهيم وقال: أما أنت يا علي فمتخلف عنا. قال علي: وكيف ذاك؟ أتأمرني بالتخلف؟ قال الشيخ الشاب: لا آمرك به، ولكن أنبئك بما سيكون من أمرك، ستهتم كما يهم غيرك حتى نرى أنك مسافر معنا، ثم نفتقدك فلا نراك، ثم تعتذر إلينا إذا انقلبنا؛ لأنك قد شغلت بمالك وأهلك. فإن استطعت أن تعتذر منذ الآن فافعل، ولا تكلف نفسك مشقة لا تغني، ثم تضاحك وقال: إنك حديث عهد بزواج. وكاد علي يغضب ولكن كيف يكون الغضب على الشيخ، إنما يغضب الشيوخ على مريديهم. وقد كظم علي شيئًا في نفسه وانصرف مترددًا لا يدري أيُقدم على الحج أم يحجم عنه.

ولم يكن الشيخ مخطئًا فيما قدّر من أمر علي، فقد كان حديث عهد بالزواج، يتزوج للمرة الثامنة بعد أن طلق من نسائه من طلق. وكانت عرسه في هذه المرة فتاة لم تبلغ العشرين، وكان بها مفتونًا وبحبها متيمًا. فكأن الذي أغراه بهذا الزواج هو شيخه رحمه الله حين عبث به ذات ليلة، وقال لمسعود: إنه سيخطب إليك إحدى بناتك، فلا تزوجه إن فعل، وعليك بابنه خالد، فإن فيه بركة وخير؛ هنالك ضحك علي ضحكًا سخيًا وانصرف وفي نفسه شيء، ولكنه لم ينقطع عن التفكير في أن يتخذ لنفسه زوجًا شابة. ألم يكن قد طلق زينب، ولم يمك في داره إلا خديجة ومحبوبة، وذكرى أم خالد؛ فله الحق في زوج رابعة. وقد بحث عن زوج رابعة، فما أسرع ما اهتدى إليها عند بعض عملائه من تجار المدينة، وكان رجلًا متواضعًا ضئيل التجارة. فلمّا سعى إليه علي ذو المكانة والجاه خاطبًا ابنته «هناء»، رأى في ذلك شيئًا من الشرف وارتفاع القدر، فقبل خطبته راضيًا، وزوجه مغتبطًا، ولم يفكر في أنه يهدي هذه الفتاة التي لم تبلغ العشرين إلى شيخ قد ناهز الستين.

على أن «هناء» لم تلبث أن استأثرت بعقل الشيخ وقلبه، وتحكمت فيه تحكمًا لم يعرفه قط من إحدى نسائه، وكادت تصرفه عما فرض على نفسه من العدل بين أزواجه لولا أنه أخذ نفسه بالعنف واشترى رضا «هناء» عن هذا العدل بكثير من الهدايا والمنح،